# ظاهرتا التذكير والتأنيث في السياقات القرآنية

أ.م.د. وفاء عبّاس فيّاض

كليّة العلوم الإسلاميّة / جامعة كربلاء
قسم اللغة العربيّة

## الملخّص

**تقوم** فكرة البحث على إيراد جملة من الآيات القرآنية المتشابهة في سياقاتها، ولكن قد ترد أحدهما بالتذكير والآية الأخرى بالتأنيث، ويعد ذلك من المواطن التي تتفاضل فيها الآيات المباركات، وتجعلها تصل إلى درجة الإعجاز القرآني الذي أراده الله سبحانه وتعالى في مخاطبة بني البشر. ولذلك فان عدّ الآية من المتشابه يعني حاجتنا إلى بيان سبب اختيار هذا المنحى اللغوي أو النحوي دون غيره في النص القرآني؛ ولذلك فالآية القرآنية بحاجة إلى تبيين علة ذلك. وعليه فالتعبير القرآني يتجاوز المظهر الشكلي للآية إلى دواعٍ سياقية أو دلالية يمكن أن يكشف عنها عند تفحص الآية وما يحيط بها، ولذلك نجد أن القرآن الكريم لا يخضع لقواعد النحو بقدر ما يكون المعنى هو الحاكم في كل ذلك فمرة يكون التأنيث أجود ومرة يكون التذكير أجود بحسب القصد والسياق طال الفصل أم قصر.

يرى بعض الباحثين أن بعض اللغات البدائية لا تفرّق بين المذكّر والمؤنّث، فتستعمل صيغة واحدة في الضمائر والأفعال، وبعض اللغات الأرقى تميّز بين المذكّر والمؤنث في الضمائر، ولكنها لا تفرّق بينهما في الأفعال ولا في الصفات (١). وهذه الأمور محسومة في اللغة العربية، ومحدّدة بتفصيل ودقة. وربّما كانت اللغة العربية اليوم من أكثر اللغات اهتماماً بالتفريق بين المذكر والمؤنّث. وكلما زادت الآلة رفعة وتقدماً ودقة، زادت وظائفها، وتقدّمت صناعتها، ودقّت أجهزتها، وتنوّعت استعمالاتها، وكذلك هي اللغة.

ولذا تعد ظاهرة التذكير والتأنيث من الظواهر الطبيعية الموجودة في اللغة العربية إلا أنها: (( تفرق العربية بين المذكر والمؤنث، فللمؤنث لواحق، وليس للمذكر شيء، هذا النوع المعبر عنه بالمؤنث (نوع نحوي)، لا ينطبق على النوع الطبيعي الجنسي، فقد يتوافق معه، وقد يختلف عنه تماماً. ومن ذلك أنّ الكلمات التي تعبر عن حالات مؤنثة بصورة نوعية تتمثل عادة بغير لاحقة تأنيث نحو:عاقر، وحامل، ومرضع ))(٢).

والـذي يعنيه بـ( النوع النحوي ) أو ما يسمى بالمؤنث نحوياً أنه تجري معاملته في الجملة بكونه مؤنثاً، ويتم ذلك عبر القرائن اللفظية من وجود تاء التأنيث الساكنة أو المتحركة اللاحقة للفعل وهي تاء الفاعل المخاطبة أو التاء اللاحقة للأسماء أو الهاء للمؤنث أو الألف المقصورة أو الممدودة .

وعلى العموم فإن التأنيث يعدّ فرعا عن التذكير، إذ المذكر هو الأول ثم يلحق به ما ينقله إلى حالة التأنيث. فالمذكر لا يحتاج إلى علامة لتدل على تذكيره في حين يحتاج المؤنث إلى علامة خاصة. وقد تكون تلك العلامة لاحقة به، وقد تكون لاحقة ببعض ما يتعلق به من ألفاظ في الجملة أو كما يقول سيبويه(٣ ): الأشياء كلها أصلها التذكير، تختصُّ بعد ذلك ( يعني التأنيث) فكل مؤنث شيء، والشيء يذكر، فالتذكير أول، ويقول سيبويه: (( اعلم أن المذكر أخفّ عليهم من المؤنث، لان المذكّر أول، وهو أشدّ تمكناً، وإنما يخرج التأنيث من التذكير، ألا ترى أن الشيء يقع على كلّ ما أخبر عنه قبل أن يعلم أذكرّ هو أو أنثى ؟ والشيء ذكر)) (٤ ).

ومن الجدير بالذكر ههنا أن أحمد أمين حكى عن امرأة إنجليزية كانت تتعلم عليه العربية، اعتراضها على تأنيث الشمس وهي قوية، وتذكير القمر، وهو لطيف وديع، وكـان الأولـى- في رأيها – أن تذكر العربية الشمس، وتؤنث القمر، كما يفعل الإنجليز (٥). وفي الحقيقة فاتها أن تأنيث الشمس ليس جنساً حقيقياً، بل هو جنس نحوي، وهذا التأنيث في الشمس دون التأنيث في فاطمة وغزالة. ولهذا قال النحاة إنها مؤنث مجازي، فيقال: طلع الشمس، وطلعت الشمس، وما بقي من التأنيث في الشمس فلأنها مصدر الحركة والحياة والتكاثر والنماء على الأرض- كما المرأة في الحياة الإنسانية – ولا تتأتى الحياة من دونها، كما لا تتأتى من دون المرأة، وليس للقمر هذه المزية. ورحم الله أبا الطيب حين قال:

**وما التأنيث لاسم الشَّمْسِ عيبٌ**

**ولا التذكيرُ فخرٌ للهلال**

حتى عدّ ذلك من معانيه التي تفرد بها(٦ ) .

(( وليس غريباً – بعد ذلك – أن يعدّ النحاة التذكير في العربية أصلاً، والتأنيث فرعاً عنه، كما خلقت حواء من آدم – عليهما السلام – مما يدل على أصالة هذه اللغة، وذوقها الرفيع.

وإذا كان الله تبارك وتعالى قد خلق من كل شيء زوجين: من الأنـاسّي، والأنعام، والبنات، حتى

الجماد- إذا تأملناه- ومصادر الطاقة والحركة والحياة، فإن من دقّة هذه اللغة، وروعة الإحساس بالوجود فيها، وتكاملها مع عناصر الكون، ونبصر الحركة، ودفق الحياة أن تحتفل احتفالاً بالغاً بقضية التذكير والتأنيث، وتعطي هذا الجانب دقة لا نجدها في غيرها من اللغات، وتتمتع برهافة لا تتأتي إلا من عايش هذه اللغة، ولامست منه حبّة القلب وشغافه.

وفي ضوء هذا المنهج من الدقة والتفصيل قسم الاسم في العربية على مذكّر ومؤنّث، سواء كان مفرداً أو مثنى أو جمعاً، وتأثر بذلك أيضاً الفعل، والخبر، والصفة، والحال، والعدد، وغيرها، ووضع لكل حالة الضمير المناسب لها، بارزاً أو مستتراً، منفصلاً أو متصلاً، ضمير رفع أو ضمير نصب، دالاً على ما يعبّر عنه من تذكير أو تأنيث، وامتد هذا التقسيم إلى أشياء أخرى: كأسماء الإشارة والأسماء الموصولة، وقسِّم المؤنث إلى حقيقي ومجازي، وإلى لفظي ومعنوي (١ ).

الآيات المتشابهات في القرآن الكريم:

مما يلفت الانتباه في دراسة القرآن الكريم وجود آيات متشابهات ورد في بعضها بالتذكير وفي بعضها الآخر بالتأنيث. ويعد ذلك من المواطن التي تتفاضل فيها الآيات المباركات وتجعلها تصل إلى درجة الإعجاز القرآني الذي أراده الله سبحانه وتعالى في مخاطبة بني البشر.

وبعد استقراء بعض آيات القرآن الكريم نجد أن هنالك آيات عدة يستطيع الباحث أن يعدّها من المتشابه القرآني وهي ورود آيات مباركة تتشابه في سياقها مع آية أخرى ولكن التعبير القرآني يعامل اللفظة مرة على حقيقة أمرها الأول بأنها مؤنثة ومرة أخرى ما ظاهره أنه يعاملها معاملة المذكر؛ ولذلك فالآية القرآنية بحاجة إلى تبيين علة ذلك.

تذكير الفعل و تأنيثه:

يرى النحاة (٧) أن تاء التأنيث تلزم الفعل في موضعين: أحدهما: أن يسند الفعل إلى ضمير مؤنث متصل، ولا فرق في ذلك بين المؤنث الحقيقي والمجازي، فتقول: هند قامت، والشمس طلعت، وهند تقوم والشمس تطلع، ولا تقول: قام ولا طلع؛ فإن كان الضمير منفصلا لم يؤت بالتاء، نحو: هند ما قام إلا هي.

الثاني: أن يكون الفاعل ظاهرا حقيقي التأنيث غير مفصول عن الفعل نحو: قامت هند.

والذي يفهم من كلام النحويين أن التاء لا تلزم في غير هذين الموضعين، أما المؤنث المجازي الظاهر فلا تلزمه التاء، فتقول: طلع الشمس، وطلعت الشمس، وقد يبيح الفصل ترك التاء، في نحو: أتى القاضي بنت الواقف، فإذا فصل بين الفعل وفاعله المؤنث الحقيقي بغير (إلا) جاز إثبات التاء وحذفها، والأجود الإثبات، فتقول: أتى القاضي بنت الواقف، والأجود: أتت وتقول: قام اليوم هند، والأجود: قامت.

فإن فصل بين الفعل والفاعل المؤنث بـ (إلا ) لم يجز إثبات التاء عند الجمهور، فتقول: ما قام إلا هند، وما طلع إلا الشمس ولا يجوز ما قامت إلا هند، ولا ما طلعت إلا الشمس، وقد جاء في الشعر كقوله: وما بقيت إلا الضلوع الجراشع

هذه مجموعة من القواعد التي تخص الفعل من حيث لزومه تاء التأنيث وعدمها عندما يكون المؤنث حقيقيا أم مجازيا مفردا، أما في حالة الجمع فإنه إذا أسند الفعل إلى جمع: فإما أن يكون جمع سلامة لمذكر لم يجز اقتران الفعل بالتاء، فتقول: قام الزيدون، ولا يجوز: قامت الزيدون.

أما إذا كان جمع تكسير لمذكر كالرجال، أو لمؤنث كالهنود، أو جمع سلامة لمؤنث كالهندات، فيجوز فيها إثبات التاء وحذفها، فتقول: قام الرجال، وقامت الرجال، وقام الهنود، وقامت الهنود، وقام الهندات، وقامت الهندات، فإثبات التاء لتأوله بالجماعة، وحذفها لتأوله بالجمع. قال تعالى:﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾(الحجرات١٤) وقال تعالى:﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾(يوسف٣٠).

وذكر الفراء أن تذكير الفعل في قوله تعالى:﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾(يوسف٣٠) ونحوه يدل على القلة بخلاف التأنيث. قال:(( ومثله: ﴿ وقال نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ فذكّر الفعل لقلّة النسوة ووقوع (هؤلاء) عليهن كما يقع على الرجال. ومنه قوله:﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾(٨ ) ولم يقل: انسلخت، وكلٌّ صواب. وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ﴾(٩ ) لقلّتهن ولم يقل ( تلك) ولو قيلت كان صوابا)) (١٠).

ويرى الدكتور فاضل السامرائي(١١) صواب هذا الرأي بدليل استعمال القرآن الكريم التأنيث أحيانا لدلالة على الكثرة بخلاف التأنيث قال تعالى:﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(آل عمران١٨٣).

فقال( قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ) بتذكير الفعل. وقال تعالى:﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾( الأعراف٤٣) فأنث الفعل ، والفرق واضح بين الأمرين فإن الأولى خطاب لبني إسرائيل فقال لهم(( قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ) والثانية في رسل الله جميعا لأن الكلام على لسان أهل الجنة في الآخرة فالرسل في الآية أكثر عددا مما في الآية الأولى فأنث الفعل للكثرة وذكّر للقلة. وقال أيضا:﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(الأعراف ٥٣) وهذه الآية نظيرة الآية السابقة فإن الكلام في الآخرة أيضا فأنث الرسل للدلالة على الكثرة والله أعلم.

ولذلك نرى أن عدّ الآية من المتشابه يعني حاجتنا إلى بيان سبب اختيار هذا المنحى اللغوي أو النحوي دون غيره في النص القرآني. فمن ذلك ما جاء من قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾(هود٦٧) وقوله تعالى في موضع آخر:﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾(هود٩٤). فقد أنث الفعل(أخذت) لإسناده إلى( الصيحة ) في الآية الثانية ولم يؤنث الفعل ( وأخذ) في الآية الأولى، مع أنه مسند إلى (الصيحة) أيضا.

فمن الناحية النحوية يعدّ هذا الاستعمال مجوزا لتأنيث الفعل أو البقاء على تذكيره في حالة إذا فصل بينه وبين فاعله المؤنث بفاصل وهو ما قال به النحويون، على أن الأمر في التعبير القرآني يتجاوز هذا المظهر الشكلي إلى دواعٍ سياقية أو دلالية يمكن أن يكشف عنها عند تفحص الآية وما يحيط بها، وقد ذكر في علة هذا المنحى وهو السؤال عن سقوط علامة التأنيث من الفعل في قوله: ( وَأَخَذَ ) في قصة صالح، وثبوتها فيه في قصة شعيب مع التساوي في الفاعل وهي الصيحة والتساوي في الفصل الواقع بين الفعل وفاعله الرافع له؟ قولهم:

((أن التأنيث على ضربين حقيقي وغير حقيقي، فالحقيقي لا تحذف تاء التأنيث من فعله غالباً إلا أن يقع فصل نحو قام اليوم هند، وكلما كثر الفصل حسن الحذف، ومن كلامهم حضر القاضي اليوم امرأة، والإثبات مع الحقيقي أولى ما لم يكن جمعاً. وأما التأنيث غير الحقيقي فالحذف فيه مع الفصل حسن، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى ﴾( البقرة ٢٧٥)، وهو كثير، فإن كثر الفصل ازداد حسناً، ( ومنه ) ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾(هود٦٧)، فالحذف والإثبات هنا جائزان والحذف أحسن، فجاء الفعل في الآية الأولى على الأولى، ثم ورد في قصة شعيب وهي الثانية بإثبات علامة التأنيث على الوجه الثاني، جمعاً بين الوجهين إذ الآيتان في سورة واحدة وتقدمها الأولى على ما ينبغي، والله أعلم.)) (١٢).

ويبدو أن الأمر ليس على هذه الصورة لأن تذكير وتأنيث (الصيحة) جاء بما يلاءم السياق الذي وضعت فيه، فجاءت (الصيحة ) بالتذكير في قصة صالح وكانت في معنى العذاب والخزي إذ كانت منتظمة بقوله تعالى:﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾( هود٦٦) فصارت (الصيحة) عبارة عن ذلك الخزي وعن العذاب المذكور في الآية فقوي التذكير بخلاف قصة شعيب فإنه لم يذكر فيها ذلك (١٣).

ويعلل آخرون ذلك بقولهم:(( التذكير والتأنيث حَسَنان، لكنَّ التذكير أَخفّ في الأُولى. وفي الأُخْرى وافق ما بعدها وهو﴿ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾(هود ٩٥).)) ( ١٤).

ويذكر الخطيب الإسكافي(ت٤٢١هـ) أن السبب في هذا المجيء هو أنه(( لمّا جاءَت في قصّة شُعَيْب مرّةً الرّجْفة﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾( ١٥)، ومرّة الظُّلَّة﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ (١٦ )، ومرّة الصّيحة﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾(١٧)، ازداد التَّأْنيث حُسْناً.))(١٨) والمعنى هو الحاكم في سياق هذه الآيات المباركة إذ جمع لهم بين الثلاثة فإن الرجفة بدأت بهم فاصحروا إلى الفضاء خوفا من سقوط الأبنية عليهم فصهرتهم الشمس بحرها ورفعت لهم الظلة فأهرعوا إليها يستظلون بها من الشمس فنزل عليهم منها العذاب وفيه الصيحة فكان ذكر الصيحة مع الرجفة والظلة أحسن من ذكر الصياح وكان ذكر التاء والله أعلم (١٩ ).

ويرى الزمخشري (ت٥٣٨هـ) أن التأنيث الحقيقي أقوى من التأنيث غير الحقيقي (٢٠) ولذلك وجب تأنيث فعله سواء كان مسنداً إلى ظاهر الاسم، أو إلى ضميره نحو: خرجت المرأة، والمرأة خرجت، وسارت الناقة، والناقة سارت، ولو قلت: جاء هند لم يجز، فإن فصل بينهما جاز نحو: جاء اليوم هند، وإذا كان التأنيث غير حقيقي لم يلزم تأنيث الفعل إذا كان مسنداً إلى ظاهر الاسم نحو: طلعت الشمس، وطلع الشمس، فإن فصل بينهما حَسُنَ أن تقول: طلع اليومَ الشمسُ، قال الله تعالى:﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾ (٢١) وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٢٢)، وإن كان الفعل مسنداً إلى الضمير فإلحاق العلامة هو الوجه نحو: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ( ٢٣) و﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾(٢٤ ))(٢٥ ).

أما الدكتور فاضل السامرآئي ( ٢٦) فالذي يراه أن هذا الكلام ليس على إطلاقه وإنما الذي يقرره المعنى، فليس إثبات التاء في الحقيقي التأنيث أجود، ولا إذا طال الكلام كان الحذف أجمل سواء كان المؤنث حقيقيا أم مجازيا ودليله على هذا كلام الله تعالى:﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى ﴾

( البقرة ٢٧٥)، وقال:﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ ﴾(يونس ٥٧) فذكّر الفعل في الأولى مع أن الفصل أقل لأنه بالهاء وحدها وأنّث في الثانية مع أن الفصل أكثر لأنه بـ (كم).

وقال تعالى:﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(البقرة ٢٥٣) وقال:﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(آل عمران ١٠٥) فمرة أنث ومرة ذكّر والفصل واحد، والحاكم في ذلك هو المعنى؛ لأن (البينات) ( ٢٧) أنثها حيث كانت بمعنى العلامات الدالة على النبوات قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ، سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ. . .﴾( البقرة ٢٠٨-٢١١).

فأنث (البينات) لأنها بمعنى الآيات البينات أي العلامات المظهرة للنبوات والدلائل. وقال تعالى:﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾( البقرة٢٥٣) والبينات هنا أيضا بمعنى المعجزات والآيات الدالة على النبوات آلا ترى إلى قوله تعالى:﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ ( النساء ١٥٣) فقوله (البينات) تعني الآيات الدالة على النبوات والمعجزات وذلك ظاهر ألا تراها منتظمة مع ما سأله أهل الكتاب من الآيات؟

في حين استعملها مذكرة في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(آل عمران١٠٢-١٠٥) وذلك لأنها بمعنى الأمر والنهي أو بمعنى الدين أو حبل الله وليست بمعنى الآيات الدالة على النبوات، ألا تراها منتظمة في سياق الأمر والنهي وليست في سياق الآيات والمعجزات.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾(الممتحنة ١٠) فحذف التاء مع أنه حقيقي التأنيث. وعلى قول النحاة يكون هذا خلاف الأجود.

وبناء على ما تقدم نجد أن القرآن الكريم لا يخضع لقواعد النحو بقدر ما يكون المعنى هو الحاكم في كل ذلك فمرة يكون التأنيث أجود ومرة يكون التذكير أجود بحسب القصد والسياق طال الفصل أم قصر.

ومما ورد في بيان تأنيث الفعل أو تذكيره من المتشابه القرآني قوله تعالى:﴿ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الممتحنة٤) وبعدها جاء قوله تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ﴾(الممتحنة٦) فأنّث في الأولى وذكّر في الثانية، وقد علل الفيروز آبادي هذا الاستعمال بقوله:(( أَنَّث الفعل الأَوّل مع الحائل، وذكَّر الثَّاني، لكثرة الحائل. وإِنَّما كَرّرَ، لأَنَّ الأَوّل في القول؛ والثَّاني في الفعل. وقيل: الأَوّل في إِبراهيم، والثَّاني في محمّد ( صلَّى الله عليه(وآله) وسلَّم))

(٢٨). ويعني بكثرة الحائل أنه فصل ما بين الفعل (كان) واسمه بأكثر من فاصل وهما (لكم، فيهم). وهذا يعني أنّ الفعل كلما فصل عن الفاعل المؤنث أو بمنزلته أمكن عدم تأنيثه. ويعني هذا أن الفعل إذا أُسند إلى فاعل مؤنث أو ما كان بمنزلته يجب تأنيثه إلا إذا فصل بينهما بفاصل أو أكثر فعندئذ أمكن تذكيره.

تأنيث الضمير وتذكيره:

أما قوله تعالى:﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾(النحل٦٦). فجاءت بالتذكير في( بطونه )، وقوله تعالى:﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(المؤمنون٢١) فوردت بالتأنيث في( بطونها). فقد قال في الآية الأولى (في الأنعام) ثم ( مما في بطونه ) وفي الآية الثانية قال (في الأنعام) ثم (مما في بطونها ).

وعلل الكرماني(ت ق٦هـ) ذلك بقوله: (( لأَن في هذه السورة ( يعني: النحل ) يعود إلى البعض(كذا) وهو الإناث لأن اللبن لا يكون للكل. فصار تقدير الآية: وإن لكم في بعض الأنعام، بخلاف ما في المؤمنين، فإنه لمّا عطف ما يعود على الكل (كذا ) ولا يقتصر على البعض(كذا) وهو قوله: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا . . ﴾(المؤمنون٢١-٢٢) لم يحتمل أن يكون المراد البعض (كذا)، فأنّث حملا على الأنعام، وما قيل: إن (الأنعام) ههنا بمعنى النعم لأن الألف واللام يُلحِق الآحادَ بالجمع والجمعَ بالآحاد حسنٌ؛ إلا أن الكلام وقع في التخصيص. والوجه ما ذكرت. والله أعلم.)) (٢٩ ).

فاللطيفة التي نلمحها في الآية الأولى تكمن في استعمال ضمير المذكر لا المؤنث الذي يتناسب مع واقع حال استفادة اللبن من الإناث أي إناث الأنعام لا من ذكورها وهو ما يعني عودة الضمير على تقدير(بعض الأنعام) وهو ما يعني به من ناحية نحوية حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وهو مسلك تسلكه العربية ويسلكه البيان القرآني كما في قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾(يوسف٨٢).

ويمكن تعضيد قول الفيروز آبادي من خلال أن توجه الآية من سورة (النحل) كان نحو أسقاء اللبن الخالص من الأنعام على حين كان توجه الآية من سورة (المؤمنون) نحو عموم المنفعة من الأنعام. ويتضح ذلك مماثلاً لفظة (الأنعام) فالأولى قالت:﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾(النحل٦٦) وقالت الثانية:﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(المؤمنون٢١).

وعلى هذا يكون الضمير في(بطونه) مشيراً إلى القلة ويكون ضمير المؤنث في (بطونها) مشيراً إلى الكثرة ((وهذا جارٍ وفق قاعدة التعبير في العربية التي تفيد أنّ المؤنث يؤتى به للدلالة على الكثرة بخلاف المذكر، وذلك في مواطن عدة كالضمير وأسماء الإشارة وغيرهما وذلك نحو قوله تعالى:﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾(يوسف٣٠) بتذكير الفعل، وقوله:﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ (الحجرات١٤) بتأنيث الفعل. فإنّ التذكير يدل على أنّ النسوة بخلاف التأنيث وهذه قاعدة معروفة لا نريد أن نطيل في شرحها وبيانها)) (٣٠).

وعلى الرغم من استحسانه الرأي الذي يذهب إلى أن الأنعام في سورة ( النحل ) بمعنى النعم فإن الموضع كان للتخصيص بتلك التي تعطي اللبن،

فالرأي الأول عنده هو القبول، وعلى العموم فإن القول بأن الألف واللام تلحق الآحاد بالجمع والجمع بالآحاد لا يبرز ميزة للتعبير القرآني كما هو الحال في الرأي الأول.

ومما جاء من المتشابه القرآني قوله تعالى: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ (الأنبياء٩١)، وقوله تعالى:﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ ( التحريم١٢) إذ جاءت الآية الأولى بالتأنيث (فنفخنا فيها) والآية الثانية بالتذكير(فنفخنا فيه) ويعلل ذلك بعضهم بقولهم:(( لأَنَّ المقصود هنا( يعني: الأنبياء ) ذِكرها وما آل إليه أمرها، حتى ظهر فيها ابنُها، وصارت هي وابنها آية. وذلك لا يكون إلا بالنَّفخ في حملها، وتحَمْلها، والاستمرار على ذلك إلى يوم ولادتها. فلهذا خُصَّت بالتَّأْنيث. وما في(التحريم) مقصور على ذكر إحصانها، وتصديقها بكلمات ربّها، وكأن النفخ أصاب فرجها، وهو مذكَّر، والمراد به فرج الجَيْب أو غيره، فخُصّت بالتَّذكير))( ٣١).

فعود الضمير حدده سياق الحال الذي يبينه توجه الآيات السابقة واللاحقة ، فالمقام لما كان في سورة (الأنبياء) متوجهاً نحو(مريم) بخاصة وما آل إليه أمرها من الحمل والولادة بعيسى (عليه السلام) كان الأنسب أن يعود الضمير عليها في﴿ ونَفَخْنَا فِيهَا﴾. ولكنه لما كان في (التحريم) متوجهاً نحو( مريم ) العفيفة التي أحصنت نفسها طاعة لربها كان التوجه نحو ما نزل بها من الابتلاء والنفخ.

ويتوقف الفيروز آبادي عند المتشابه القرآني من قوله تعالى: ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾(٣٢)( آل عمران٤٩) وقوله تعالى:﴿ فيها﴾(٣٣)(المائدة١١٠) فأستعمل في الأولى ضمير المذكر، وفي الثانية ضمير المؤنث:(( قيل: الضمير في هذه (يعني: آل عمران ) يعود إلى الطير، وقيل إلى الطين، وقيل إلى المهيَّأ، وقيل إلى الكاف فإنه في معنى (مثل). وفي المائدة يعود إلى الهيئة.))( ٣٤).

ويبدو أنّ هذا الاستعمال – كما هو واضح – لا يستدعي التوقف والتأمل، مما دعا الفيروزآبادي إلى القول بعد النص المتقدم (( وهذا جواب التذكير والتأنيث، لا جواب التخصيص، وإنما الكلام وقع في التخصيص وهل يجوز أن يكون كل واحد منهما مكان الآخر أم لا (كذا)(٣٥ ). فالجواب أن يقال: في هذه السُّورة( يعني: آل عمران) إخبار قبل الفعل، فوحَّده؛ وفي( المائدة) خطاب من الله له يوم القيامة، وقد سَبَق من عيسى ( عليه السلام ) الفعلُ مرّات والطير صالح للواحد والجمع))( ٣٦).

وبعد أن يذهب الفيروز آبادي إلى أنّ لكل من الاستعمالين مكانه الخاص، وأنه لا يجوز التبادل، فمن ثم عندما كان أول عهد عيسى (عليه السلام) بذلك عبر بالضمير المذكر المشير إلى المفرد. على حين أن الأمر في (المائدة) في يوم القيامة، وكان عيسى قد فعله مرات كثيرة فاستعمل ضمير المؤنث الذي يشير إلى جمع من المرات والله أعلم.

# الخاتمة

• بعد الولوج في ظاهرتي التذكير والتأنيث وأثرهما في إيراد طائفة من الآيات المتشابهات من القرآن الكريم، والخوض في جزء يسير من تفاسيرها، نجد أننا خرجنا بنتائج كان من أبرزها:

• انفردت اللغة العربية عن غيرها من اللغات الأخرى بوجود ظاهرتي التذكير والتأنيث.

• لا تكتفي العربية بوجود هذه الظاهرة فحسب بل تفرق بين المذكر والمؤنث بأن تجعل للمؤنث لواحق أو قرائن دالة عليه، وليس للمذكر شيء من ذلك.

• هنالك جملة من القواعد يضعها النحويون في موضوع تأنيث الفعل وتذكيره وقد يخالف القرآن الكريم تلك القواعد.

• وجود آيات كثيرة في القرآن الكريم متشابهة في بعض سياقاتها ولكنها تختلف في استعمالاتها من حيث التذكير والتأنيث والمعنى هو الحاكم في ذلك.

• تباينت آراء العلماء في تفسير الآيات المتشابهات المتعلقة بالتذكير والتأنيث.

• إن التعبير القرآني يتجاوز المظهر الشكلي لبعض القواعد الخاصة بالتذكير والتأنيث إلى دواعٍ سياقية أو دلالية يمكن أن يكشف عنها عند تفحص الآية وما يحيط بها.

• عبر مسارات البحث نلمح أن التأنيث على ضربين حقيقي وغير حقيقي، فالحقيقي لا تحذف تاء التأنيث من فعله غالباً إلا أن يقع فصل، وأما التأنيث غير الحقيقي فالحذف فيه مع الفصل حسن.

• أحيانا يكون عود الضمير المذكر أو المؤنث يحدده سياق الحال الذي يبينه توجه الآيات السابقة واللاحقة للآيات المتشابهة.

# الهوامش

(١) التذكير والتأنيث في العربية والاستعمالات المعاصرة ١٠٥ - ١٣٣ ولتوضيح ذلك يرى أن الإنجليزية - على سبيل المثال- وهي أكثر اللغات - اليوم- انتشاراً تستعمل (He) للمذكّر، وتستعمل ( She ) للمؤنث، ولكنها لا تفرّق بين الأفعال فهي تقول"(He Plays = هو يلعب ) كما تقول ( She Plays = هي تلعب ) ولا تفرّق بين المذكّر والمؤنث في الخبر، فهي تقول: (He is a teacher = هو معلم) كما تقول: (She is a teacher = هي معلمة ) ولا في الصفة فتقول: (Clever boy = ولد ماهر) وتقول: (Clever girl = بنت ماهرة )، ونفتقد فيها ضمير المثنى، فإذا وصلنا إلى الجمع وجدنا ضميراً واحداً يدل على المذكر والمؤنث هو( They هم أو هنّ) وأسماء الإشارة كذلك مبنية على عدم التمييز بين المذكّر والمؤنّث، فـ(this = هذا أو هذه ) و (That = ذلك أو تلك) إلى غير ذلك.

(٢ ) العربية الفصحى ٦٩.

(٣ ) ينظر: الكتاب ٣/ ٢٤١.

(٤ ) الكتاب ١/ ٧.

(٥) حياتي ١٨٥.

(٦ ) ينظر: ديوان المتنبي بشرح الكعبري٣/ ١٨ .

(١) شذا العرف ٨٥ .

(٧) ينظر: شرح ابن عقيل٢/ ٦٣ وما بعدها.

(٨) سورة التوبة ٥.

( ٩) سورة الإسراء ٣٦.

(١٠ ) معاني القرآن ١/ ٤٣٥.

( ١١) ينظر: معاني النحو ٢/ ٤٨٩-٤٩٠.

( ١٢) ملاك التأويل ٢/ ٢٥٩-٢٦٠.

(١٣ ) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٦٨.

( ١٤) أسرار التكرار ١٠٩، بصائر ذوي التمييز ١ / ٢٥٢.

( ١٥ ) العنكبوت ٣٧.

( ١٦ ) الشعراء ١٨٩ .

(١٧ ) هود٩٤.

( ١٨ ) درة التنزيل ١٨٦ .

( ١٩ ) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٦٨.

(٢٠ ) ينظر: الأنموذج في النحو ٩٢ .

( ٢١) سورة البقرة ٢٧.

(٢٢ ) سورة الحشر٩.

( ٢٣) سورة التكوير١.

( ٢٤) سورة الانفطار١.

( ٢٥ ) ينظر: باب المذكر والمؤنث: الكفاية في علم الإعراب١٢٠.

( ٢٦ ) ينظر: معاني النحو٢/ ٤٨٢.

( ٢٧) ينظر: معاني النحو ٢/ ٤٨٧-٤٨٨.

( ٢٨ ) بصائر ذوي التمييز ١ / ٤٦١.

( ٢٩ ) أسرار التكرار ١٢٥.

( ٣٠ ) التعبير القرآني ١٥٩- ١٦٠.

( ٣١ ) أسرار التكرار ١٤٤. وينظر: بصائر ذوي التمييز١ / ٣٢٢.

( ٣٢ ) يريد قوله تعالى: ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا ﴾ ( آل عمران ٤٩ )

( ٣٣ ) يريد قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ ( المائدة ١١٠ )

( ٣٤ ) بصائر ذوي التمييز ١ / ١٦٢.

( ٣٥ ) استعمال ( أم ) متصلة معادلة بعد ( هل ) غير صحيح ولا جائز.

( ٣٦ ) بصائر ذوي التمييز ١ / ١٦٢. وينظر: أسرار التكرار ٤٨.

# المصادر:


١) التذكير والتأنيث في العربية والاستعمالات المعاصرة: الدكتور محمود إسماعيل عمّـار كلية المعلمين- أبها- السعودية مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع ٦١.

٢) حياتي: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثانية، ١٩٧١.

٣) ديوان المتنبي بشرح الكعبري تحقيق السقا وآخرين، دار المعرفة – بيروت، ١٣٩٧هـ.

٤) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: الإمام الحافظ العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي، دار الكتب العلمية – بيروت.

٥) شذا العرف: الحملاوي، المكتبة العلمية.

٦) أسرار التكرار في القرآن : محمود بن حمزة الكرماني( ت ق ٦هـ) ، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا ، دار بوسلامة للطباعة والنشر – تونس، الطبعة الأولى١٩٨٣م.

٧) التعبير القرآني: د. فاضل السامرآئي، ساعدت جامعة بغداد على نشره ، مطبعة التعليم العالي- الموصل ،١٩٨٦م-١٩٨٧م..

٨) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين الفيروزابادي( ت ٨١٧هـ ) تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة ،١٣٨٣هـ – ١٩٦٤م.

٩) درة التنزيل وغرة التأويل: الخطيب الإسكافي ( ت٤٢١هـ)

١٠) الأنموذج في النحو: جار الله الزمخشري(ت٥٣٨هـ) ، دار الأفاق الجديدة – بيروت ، الطبعة الأولى ،١٤٠١هـ -١٩٨١م.

١١) الكفاية في علم الإعراب (باب المذكر والمؤنث): دراسة وتحقيق عبد الرزاق حامد

١٢) العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد: هنري فليش، ترجمة : د. عبد الصبور شاهين، دار المشرق – بيروت، الطبعة الثانية،١٩٨٣م.

١٣) الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه (ت١٨٠هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب- بيروت،(ت د).

١٤) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ابن عقيل العقيلي(ت ٧٦٩هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الحياة للنشر والتوزيع- القاهرة

١٥) معاني القرآن: أبو زكريا الفرّاء (ت٢٠٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، وإسماعيل شلبي، وعلي النجدي- القاهرة ، ١٩٥٥م-١٩٧٢م.

١٦) معاني النحو: الدكتور فاضل صالح السامرائي، ساعدت جامعة بغداد على نشره- بيت الحكمة، السنة الدراسية١٩٨٦ – ١٩٨٧.

١٧) البرهان في علوم القرآن: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي(ت ٧٩٤ هـ) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – بيروت، ١٣٩١هـ.